

الغزو الثقافي الشيوعي

وإذا كان الغزو الثقافي من الغرب قد بدأ بعد الحروب الصليبية وابتلينا به منذ قرون، ووصل بنا إلى هذا المدى، فقد جد علينا غزو ثقافي جديد وخطير، منذ أوائل هذا القرن، وهو الغزو الشيوعي الماركسي..

لقد أطلق ماركس دعوته الماركسية، ووضع أسسها في منشوره (المانفستو) في ١٨٤٨م، الذي يدرسه الآن كل شيوعي في العالم، كما يدرس لكل مبعوث من أنحاء العالم إلى روسيا، ويمتحن فيه، قبل أن يمتحن في العلم الذي ذهب لدراسته هناك. وأول مبدأ أو خطوة في الشيوعية: الاعتقاد بأن الحياة مادة، ولا يوجد إله، وبالتالي لا يعترف برسول ولا كتب، ولا شريعة منزلة من الله.. فالدين خرافة صنعها الإنسان كما صنع الإله ثم عبده..

يقول ماركس: «لا إله والحياة مادة».

ويقول: الدستور والدين والأخلاق خدعة «برجوازية»، يتستر بها البرجوازيون^(١) من أجل مطامعهم، إن الدين هو أفيون الفقراء (أى المخدر الذى يخدرهم ويجعلهم لا يطالبون بحقوقهم)، وهذا هو حجر الزاوية في الفلسفة الماركسية.. إن جميع الأديان والكنائس والمنظمات الدينية، إنما هي لتخدير الطبقة العاملة، إن رسالة «البروليتاريا» - أى العمال - هي القضاء على الدين والداعين إليه..

ويقول في أبجدية الشيوعية: «لا غناء لنا في الوقت الحاضر عن شن الحرب على تعاليم الدين وأوهامه وخزعبلاته»..

(١) كلمة يراد بها الطبقة المتوسطة وأصحاب المصانع والثروات، وهى الطبقة التى تتهمها الشيوعية بأنها تستغل طبقة «البروليتاريا» أى طبقة الفقراء الكادحين من العمال، ونسخر الدين والقانون والسلطة لصالحها فى تسخير البروليتاريا.

ويقوله زميله «إنجلز»: لا محل لوجود خالقي في هذا الزمان»^(١)..

ويقول لينين: «إن الدين هو أفيون الشعوب.. والبحث عن الله لا فائدة فيه ولا بد من محاربة الدين. هذا هو لب الماركسية، وينبغي أن نعرف كيف نحارب الدين»

ويقول ستالن: لا يستطيع الحزب أن يقف من الدين موقف الحياد، إن الحزب يشن حملة دعائية ضد أي إنحياز للدين، لأن الدين كله شيء مناوئ العلم». ووجه الحزب الشيوعي بياناً رسمياً للمعلمين في جميع أنحاء البلاد جاء فيه: «إن المعلم الذي يؤتمن على تعليم النشء لا يمكنه ولا ينبغي له أن يكون محايداً في موقفه من الدين، إن عليه لا أن يتخلص من الإيمان فحسب، بل أن يقوم بدور إيجابي في الدعوة إلى عدم الإيمان بوجود إله، وأن يكون داعية متحمساً إلى الإلحاد»

ونشرت مجلة «أوزبكستان مادانياتي» في ٢٢ مارس ١٩٥٨ ما يأتي:

«إن من شأن الدين أن يحول بين المواطن السوفيتي، وبين أن يكون بناءً في صرح المجتمع الشيوعي، والإسلام بصفة خاصة هو بحكم تقاليد وعاداته عدو للاشتراكية».

ويقول مولوتوف في خطبة له: لن تنتشر الشيوعية في الشرق إلا إذا أبعدنا أهله عن تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز، وإلا إذا قضينا على الإسلام» يريد بالحجارة: الكعبة. متصوراً أن المسلمين يعبدونها، لا يؤدون عبادة لله حولها.

ويقول الرفيق «لونا شارسكي» وزير التعليم في الاتحاد السوفيتي في خطاب له: «نحن نكره المسيحية والمسيحيين وحتى أحسن المسيحيين خلقاً نعهده من أكبر أعدائنا، إنهم يبشرون بحب الجيران، والعطف والرحمة، وهذا يخالف مبادئنا، فالحب المسيحي عقبة في سبيل تقدم الثورة، فليسقط حيننا لجيراننا، فإن ما نريده هو الكراهية والعدوان، وحينئذ نستطيع غزو العالم»، وهو يتحدث عن المسيحية التي يعرفها..

(١) عن كتابي: إسلام لا شيوعية».

وأخيراً يقول جمال عبد الناصر في إحدى خطبه: لقد عرض على أن أكون شيوعياً فرفضت لأسباب ثلاثة:

أولها: أن الشيوعية ضد الدين.

ثانيها: أنها تفرض الهدم بالقوة وإني ضد ذلك.

ثالثها: وليس أقلها شأننا إني أو من بالقومية^(١) وهي لا تؤمن بالقومية، ولذلك كان خرشوف يعلن تهكمه بشعار القومية العربية. لأن القومية عندهم هي قومية الشيوعية العالمية، وهي ضد كل وطنية وقومية وضد كل تجمع غير التجمع الشيوعي..

وهذا كله يؤكد أن الشيوعية لا تعايش ديناً ولا مذهباً آخر، فيما هي أو لا شيء غيرها.. فهي لا تعايش المسيحية ولا الإسلام.. ولا تعايش القومية أو الوطنية^(٢).

ومعنى ذلك أن الشيوعي لا بد أن يتنازل عن دينه ووطنيته أو قوميته في سبيل عقيدته الشيوعية، وبالتالي يتنازل عن مبادئ دينه وتعاليمه، وكل ما يتصل بثقافته، ليحل محل ذلك الشيوعية ومبادئها وثقافتها.

وهي لا تقبل حلاً وسطاً.. يعني لا ترضى أن يكون الإنسان شيوعياً، ومسلماً أو متعاطفاً مع الإسلام.. وإذا عرف عن أحد من أعضاء الحزب الشيوعي أنه متعاطف مع الإسلام، أو متهاون في حزبه، فصل من الحزب سريعاً.. وسموه مرتدداً.. وللمرتد عندهم جزاؤه الرادع..

(١) ارجع في هذا إلى كتابي «إسلام لا شيوعية» من ص ٥٧ وما بعدها مصدر سبق ذكره.

(٢) وقد حدثت مشادة حادة بين الرئيس العراقي عبد السلام عارف وبين خروشوف في استراحة على البحر الأحمر بعد افتتاح السد العالي. بسبب تحدث الرئيس العراقي عن القومية العربية، فقال منه خروشوف بكلام «عياي» لا كلام رؤساء.. كما حدثني أحد السفراء الذي حضر هذه المحادثة. ولم استبعد من خروشوف هذا، وهو الذي رفع رجله في الأمم المتحدة ووضعها على المنضدة التي أمامه في وجه الجميع معبراً بذلك عن رأيه فيها كان يسمع ويرى..

أخطر أنواع الغزو الثقافي:

فالشيوعية بذلك أخطر أنواع الغزو الثقافي، وهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين وتقتلعه من الجذور أي دين ولو كان وضعياً كالهندوسية والبوذية، فإن من شأن الدين أن يحول بين المواطن السوفيتي، وبين أن يكون بناءً في صرح المجتمع الشيوعي، والإسلام بصفة خاصة لأنه بحكم تقاليد وعاداته عدو للاشتراكية كما جاء في مجلة أوزبكستان الشيوعية..

والشيوعية لا يمكن أن تنتشر في الشرق إلا إذا أبعدها أهلها عن تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز، وإلا إذا قضينا على الإسلام، كما يقول مولوتوف، كما ذكرنا من قبل.

ولقد بدأت الدعوة الماركسية الشيوعية في منتصف القرن الثامن عشر، واعتنقها كثيرون في أوروبا موطنها الأصلي.. ولكن لم تتكون باسمها وعلى مبادئها دولة إلا بدءاً من أوائل القرن العشرين، حيث قامت ثورة في روسيا ضد القيصرية ١٩١٧ وأسقطتها، وقبض على زمام الأمور فيها الشيوعيون، بعد أن وصل لينين من غرب أوروبا إلى روسيا..

ومنذ ذلك الوقت قام باسم الشيوعية ومبادئها دولة تحتضنها هي: روسيا ودول أخرى بعد ذلك تسخر كل قواها لنشر مبادئها في العالم..

تخاطب الغرائز:

وكان مما يؤسف له أن تجد الشيوعية مكاناً لها بين المسلمين المؤمنين بالله. والشيوعية من أخص خصائصها أنها تخاطب الغرائز، وتطلق الوعود بتحقيق المساواة والحرية، والقضاء على الظلم، والانتصاف للفقراء والعمال الكادحين. وبذل الوعود لهم بأنهم الذين سيحكمون، إذا انتصروا على الحكم القائم في أي بلد وينتقمون من الأغنياء!!

ومن شأن هذه الوعود أن يسهل لها لعب الكثير من الناس في أي بلد، ولو

بعيداً عن سيطرة الشيوعيين. ولذلك لم أجد منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية، وانتشارها كضوء الشمس وغزوها القلوب قبل أن تصل جيوش المسلمين إليها، لم أجد دعوة تسرى مثل هذا السريان، كالدعوة الماركسية الشيوعية، التي تجد لها أنصاراً ومعتنقين في كل مكان، ولو على بعد شاسع جداً من مركز الدعوة الماركسية...

ولذلك تجد شيوعيين وأحزاباً شيوعية في كل مكان على ظهر الأرض.. غزت قلوبهم الدعوة الماركسية، وصاروا منفصلين في تفكيرهم وعواطفهم عن مجتمعهم، مرتبطين بالدولة الأم، التي قامت باسم الشيوعية لأول مرة في التاريخ الحديث وعملت على احتضانها والدعوة إليها، يتلقون منها الوحي، ويتجهون إلى حيث تريد، ولو ضد أوطانهم ومجتمعاتهم.. ويعملون بكل ما في وسعهم العمل على قيام حكم شيوعى في مجتمعهم، مرتبط بالحكم الأم في روسيا أو غيرها ومتحالف معه، أو دائر في فلكه..

ومن هنا كانت الشيوعية أخطر أنواع الغزو الثقافى أو الفكرى..

وقد ابتلينا هنا، كما ابتليت بلاد كثيرة في العالم: إسلامية وغير إسلامية بهذا الغزو، ووجدنا من الماركسيين هنا انفصالا تاماً عن مجتمعهم، في دينه وأمانيه ومصالحه الوطنية والقومية، حتى صاروا يمثلون في الداخل جزيرة منعزلة عن حولهم، وإن تكلموا لغتهم وعاشوا بينهم وحدثهم بأمانيتهم ومصالحهم.. وتمتعوا بخيرات وطنهم.

وقد تحدثت عن ذلك بشيء من الإيضاح والتفصيل مع سياق الأدلة العملية عليه من الواقع، وذلك في كتابي «إسلام لا شيوعية» تحت عنوان استعمار فكرى أحب أن أضع هنا أمامك^(١) بعضه:

استعمار فكرى:

«إن الشيوعية فكرة مثل كل الأفكار تفرض على كل معتنق لها أن يفنى فيها

وينسى كل شيء عداها: الدين والوطن والأسرة، والشيوعيون خيوط في جميع أنحاء العالم تتجمع في موسكو، تجذبهم وترسلهم، وتقيمهم وتعقدهم، فيصبحون ولا يهمهم قضايا أوطانهم أو دينهم، كما يهمهم الارتباط والتساند بعضهم مع بعض، من أجل الشيوعية... ولهذا فإنّي اعتبر الشيوعية قبل كل شيء احتلالاً فكرياً خطراً يذيب شخصية الأمة ويفنيها...

وهو أخطر من الاستعمار المادى الآخر القائم على القوة.. فالاستعمار الإنجليزى مثلاً لمصر لم يكن استعماراً سبقته أفكاره في قلوب الناس ورحبوا به، وإنما قام على القوة، ولذا كافحه الشعب من أول لحظة، وكانت طلقات المدافع على الإسكندرية أيام الثورة العربية (سبتمبر ١٨٨١)، أول صوت يسجل هذه المقاومة وظلت مصر تقاومه عشرات السنين..

أما الشيوعيون في أية دولة فهم خطر على كيائها الداخلى، لأنهم لا يستوحون مبادئها ولا تقاليداً بقدر ما يستوحون اتجاهات «موسكو» أو الصين ومبادئها.

وفي خطاب لجمال عبد الناصر يرد به على «خروشوف» رئيس روسيا ١٩٥٩ م حين غضب على عبد الناصر اعتقاله للشيوعيين العرب في مصر وسوريا، قال عبد الناصر: «إن الأحزاب المحلية الشيوعية في جميع أرجاء العالم العربى تعمل بمساندة سوفيتية، ضد القومية والوحدة العربية^(١)»

ولذلك وجدنا خروشوف عندما فوَّتح في زيارته لمصر حينها كانت الأحوال حسنة، يعلن أنه لا يستطيع أن يزور مصر والشيوعيون معتقلون فيها، فأطلق سراحهم ووضعوا في مناصب حسنة قيادية وغير قيادية، ومنحوا الرواتب الحسنة..

ويقول «ديمتروف» سكرتير الحزب الشيوعى البلغارى: «إن صدق الشيوعى هو موقفه من الاتحاد السوفيتى»

(١) ص ٢٠٧ من كتاب «عبد الناصر والعالم» لمحمد حسنين هيكل..

كما يقول: «إن العاطفة القومية خليقة بالتشجيع مادامت موجهة ضد بقايا الإقطاع أو ضد البرجوازية القومية، غير أنه يجب مقاومتها (أى العاطفة القومية) بمجرد اصطدامها بالحرية الشيوعية، أو بالاتحاد السوفيتي»^(١)

ويعرف «ستالين» الرجل الدولى بأنه «الذى يظهر استعداداً لأن يقوم بلا تحفظ ولا تردد وبدون شرط، بالدفاع عن الاتحاد السوفيتي، لأنه قاعدة الحركة الثورية العالمية»^(٢) أى الشيوعية...

وفي كتاب «حقيقة وأسرار الشيوعية المحلية»^(٣)، جاء قول للدكتور مصطفى محمود عن فترة وجوده بين الشيوعيين: «كانت موسكو تبدو لنا فى ذلك الحين الكعبة الأم لهذا الدين الجديد يعنى الشيوعية»..

ولا أريد أن أسترسل فأضع أمامك هنا ما ذكرته هناك من الأدلة على أن الشيوعية تمحو من ذهن الشيوعى وقلبه، كل ولاء لغيرها.. حتى ليبدو الشيوعيون فى كل مكان على رأى واحد مع رأى الدولة الأم الشيوعية، سواء كانت روسيا أم الصين، بصرف النظر عن رأى دولتهم، ومصالح وطنهم. ولذلك تجد الآن أحزاباً شيوعية روسية، وأحزاباً شيوعية صينية من بين الشيوعيين فى بلاد العالم خارج روسيا والصين.. وإن كان كلا الحزبين يقوم على المبادئ الشيوعية الأصلية المضادة للدين والقومية وغيرها من المبادئ الماركسية، لكن يفرق بينها اتجاه الدولة السياسى التى يتبعها.. كما نرى ذلك واقعاً على الساحة العالمية.

ويمكن أن ترجع إلى هذا الباب فى كتابى السالف الذكر، لترى المزيد من الدلائل الواقعية التى مرت بنا وبين حولنا، من تصرفات الشيوعيين التى تدل على الغزو العميق للشيوعية فى نفوسهم، حتى وجدناهم يناصرون الشيوعية ودولتها على ثقافتهم ووطنهم..

ولقد رفع هؤلاء الشيوعيون عقيرتهم باستمرار، بأن الدولة الشيوعية نصيرة

(١) الماركسية والغزو الفكرى للأستاذ جلال كشك ص ١٤٤.

(٢) الموقف الدولى والدفاع عن الاتحاد السوفيتي، ستالين ١٩٢٧.

(٣) للأستاذ لمى المطيعى...

الشعوب، ومحبة للسلام، وحريصة على حريات الشعوب ضد الاستعمار.. الخ. ولكننا رأينا أن هذه الادعاءات كانت تدارى وراءها ما ينقضها تماماً، أو كانت كما يقال في المثل الشعبي: «مثل كلام الليل يطلع عليه النهار يسبح.. أو يحوه النهار».. فإن روسيا ليست نصيرة الشعوب كما تدعى، بل هى كآية دولة استعمارية، تلتهم الدول الضعيفة ما أمكنها ذلك.. وتفرض عليها سلطانها.

وهذه دول شرق أوروبا المطحونة تحت الدبابات الروسية..

وهذه أفغانستان الدولة الإسلامية، ومأساتها على يد القوة الروسية الشيوعية، ماثلة أمام العالم كله...

ومن قبل قيام الشيوعية، استولت روسيا القيصرية على البلاد الإسلامية المجاورة لها..

«فاستولت على قازان واسترخان في منتصف القرن السادس عشر، ثم امتد التوسع حتى وصل إلى القوقاز وسهول التركستان، فأراضى مسلمى الأورال التي احتلت ١٦٧٠، وجزيرة القرم ١٨٦٤، وبلاد القوقاز ١٨٦٤، وطشقند ١٨٥٩، وإمارة بخارى ١٨٨٢، والتركستان ١٨٨٤»^(١)

وقد جاء النظام الشيوعى ١٩١٧، فغازل المسلمين بالوعود، واستعان بهم، حتى ثبت أقدامه، ثم استدار عليهم، وقضى على شوكتهم التي ساعدته، وأخذ يخطط لإبادة الإسلام، وينفذ ما خططه حتى الآن...

ولو أنه اضطر خلال الحرب العالمية الثانية للسماح ببعض المظاهر الإسلامية أن تظهر.. لمجرد الدعاية. وكذلك المسيحية..

ولا يزال شعب أفغانستان تنهال عليه روسيا بكل قوتها، وهو يقاوم منذ بضع سنوات حتى كتابة هذه السطور.. وتبيد عشرات الآلاف والبيوت لتثبت أقدامها، وترغم الشعب على الاستسلام لها، وهى مع ذلك نصيرة الحرية والشعوب!!.

(١) العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى ص ٤١٠-٤١٧ للأستاذ أنور الجندى عن وسائل مقاومة الغزو ص ٣٤.

حرب من كل ناحية

وهكذا يجاربون الإسلام وثقافته وأمته من الغرب والشرق، ويجد المسلمون المعاول تنهال عليهم بكل الطرق: الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. ويلمسون التحيز لغيرهم ضدهم في كل مكان.. وفي كل تصرف...

ومن الغريب أو من البلاد، أو قل البلاهة، أو ما شئت فقل عن المسلمين في كل دولهم ومجتمعاتهم، أنهم لم يحسوا حتى الآن الإحساس الذي يولد فيهم رد الفعل القوي ضد خطر هذه الروح الصليبية والشيعوية من هنا أو هناك، ولا يتخذوا من المواقف سواء فيما يتصل بتوحيد كلمتهم، وتجميع قوتهم في الداخل، أو في مواقفهم الخارجية تجاه الغرب والشرق، ما يدل على حيوية فيهم، وتقدير لظروفهم، ولما يجب على كل إنسان حر أو شبه حر، من الدفاع عن نفسه وعن بقائه.

والمعاول التي تنهال على رؤوسهم تتتابع وهم في غمرة ساهون، وفي بلادة وبلاهة يعيشون.. وسلاحهم الذي في أيديهم إنما يستعملونه فيما بينهم، وضد بعضهم البعض.

﴿بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾^(١)

فأمامهم طريق السلامة والقوة، ولكنهم عنه عمون، يؤثرون مصالحهم ونزواتهم على مصالح أمتهم ودينهم، ولذلك تنطبق عليهم سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً...

(١) وهذه الآية الرابعة عشرة من سورة الحشر نزلت في وصف اليهود الذين كانوا يعادون الرسول في المدينة، ولهذا الذي كان فيهم كان مصيرهم، وهو مصير كل أمة هذه حالها وصفتها «قوم لا يعقلون»، وما كان في اليهود من سوء نزل بهم العذاب من أجله يمكن أن يكون في أي مجتمع ولو من المسلمين يظهر فيه هذا السوء فالعذاب نزل على اليهود لا لجنسيتهم ولكن لأفعالهم..

وفي أيديهم من وسائل القوة، ما يمكنهم من أن يكونوا قوة ترهب غيرهم وتوقفه عند حده.. ولكنهم لا يستعملون في مكانه ما وضعه الله في أيديهم.. وسائل العزة طرقت، وتطرق أبوابهم، ولكنهم في لهوهم داخل البيت لا يفتحون لها الأبواب..

كل النذر من حولهم تؤكد أنهم مستهدفون للغرب وللشرق معاً، وإن الحروب الصليبية المتعصبة وأهدافها، لا تزال تسيطر على الغرب، ويعاملنا على أساسها^(١) وبروحها. ولكنهم لا يتنبهون ولا يتحركون «وماذا تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، ولا يتدبرون؟»..

وقد يبدو منهم كلام يشعر السامع أنهم حريصون وفاهمون، ولكننا لا نجد صدى لهذا في الأعمال.

وإلا فقد مرت عشرات السنين، والمطارق تنهال فوق رؤوسهم، والطريق واضح أمامهم، فماذا عملوا؟ ماذا عمله الكبير والصغير؟.

إن الغرب لم ولن يتخلى عن روحه الصليبية في النظرة إلينا، وفي معاملتنا على مر السنين، وهذا القائد الإنجليزي «اللورد اللنبي» يقول حين دخل القدس في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ «اليوم انتهت الحروب الصليبية!!»

وزميله القائد الفرنسي «غورو» يقول عندما دخل هو الآخر «دمشق»، وذهب إلى قبر صلاح الدين، ليتشفى وهزأ: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين!!»

من هم الذين عادوا.. هم أبناء القرن العشرين.. وقد كانت الحروب الصليبية، وطردهم من الشرق قبل ذلك بقرون ولكن المرارة والحقد والإصرار على الثأر، ظل في النفوس مئات السنين، حتى القرن العشرين^(٢)...

(١) راجع في كتابي «الإسلام والغرب وجهها لوجه» من ص ١١٦ عن «تسامح الشرق وتعصب الغرب» طبع بيروت ١٩٨٢.

(٢) كنت في زيارة لتونس من ١١-٢١ نوفمبر ١٩٨٤، لحضور ملتقى فكري إسلامي وفي يوم الثلاثاء ٢٠ نوفمبر اطلعت على جريدة «الصباح» التي تصدر يومياً في تونس على الخبر الآتي تحت عنوان «ذوق»: =

وأبناء القرن العشرين منهم، هم الذين تصرفوا وتلاعبوا بنا على هذا الأساس في أثناء هذه الحرب، وما بعدها، وحتى الآن.. لم يتخلوا عن روحهم الصليبية سواء في حريمهم لدولة الخلافة، أو في تقسيم تركتها.. وفي التخطيط لزرع دولة يهودية بيننا في فلسطين، فصدر ما يسمى «بوعد بلفور» في أثناء هذه الحرب ١٩١٧ تمهيداً لإنشائها..

وتقول الكاتبة الإسرائيلية «بربارة توخمان» في كتابها «التوراة والسيوف» وهكذا دخل الجنرال اللنبي إلى القدس ١٩١٨ فنجح حيث كان «ريتشارد» قد أخفق، ولولا ذلك الانتصار لما كانت إسرائيل حقيقة واقعة^(١)..

لأن وعد بلفور الانجليزي، جعل الانجليز يحرصون على الانتداب على فلسطين وحكمها بعد ذلك، ليمهدوا الأمور لقيام الدولة اليهودية، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٨م حين أنضجوا «الطبخة».

إن الغرب حرص في سياسته نحو البلاد الإسلامية على الأخص، على أن يحرث الأرض بمحراثين وبسلاحين: سلاح الفكر وسلاح المدفع.. سلاح هادئ في ثياب مصنعة غير عدائية، وسلاح يدوي ويقهر ويخيف.

وهو ماض في سياسته هذه حتى الآن، برغم كل ما يعلنه من شعارات العدل وحقوق الإنسان، وعدم التعصب..

= «الوفد البرلماني العربي الذي كان يقوم بزيارة لإسبانيا مؤخراً ذهب إلى «غرناطة» المدينة الأندلسية الشهيرة، هناك استقبلوا الوفد استقبالا رائعا، وأهدوه هدايا في لفافات جميلة، وعندما فتح أعضاء الوفد الهدايا، وجدها تحتوي على نسخة أتيقة من إعلان استسلام العرب في غرناطة ١٤٩٢ م، هل هذا من الذوق؟

وكان هذا هو التعليق الذي استطاعته الصحيفة في الجو الذي تصدر فيه.. ولا أريد أن أعلق، بل أترك لك التعليق، أترك لنفسك الشعور به، لأنه أكبر من أن يصور في كلام مها يطل.. وكذلك يفعلون ١٩٨٤، بعد مرور نحو خمسمائة سنة!!.

(١) ص ٢٩ من سلسلة كتب «دعوة الحق» العدد ٥ للدكتور محمد حسان إصدار رابطة العالم الإسلامي. وريتشارد قلب الأسد هو الذي هزمه صلاح الدين..

الحرب الصليبية العاشرة:

وقد أعجبني ما كتبه الكاتب والمحلل السياسي الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين في مجلة «العربي» الكويتية، وهو رئيس لتحريرها في العدد ٢١٣ في شعبان ١٣٩٦ هـ أغسطس ١٩٧٦ م، في مقاله الرئيسي بعنوان «نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة»، أقتطف منه ما يخص موضوعنا وحاضرنا الآن^(١) لأهميته، فقد بدأ بسرد للحروب الصليبية الثمانية، منذ بدأت حتى انتهت بهزيمة الصليبيين وجلائهم عن الشرق. ثم قال:

«وانتهت تلك الصفحة التي دامت قرناً وسميت باسم الحروب الصليبية، وقد انقرضت ممالك اللاتين المصطنعة، وعادت البلاد إلى أصحابها، وإن ظلت مرارة تلك المرحلة في نفوسهم قرناً، يؤلفون فيها ويعودون إليها، ويدرسونها في مدارسهم، من وجهة نظرهم طبعاً..

ولكن هل انتهت القضية عند هذا التاريخ؟
كلا، فإننا نعيش صورة جديدة منها في الحاضر..
ومن حقنا أن نضيف للحروب الثمانية المسجلة في كتب التاريخ حربين أخريين ربما تحت نفس العنوان:

في فترة ما ظهرت الإمبراطورية العثمانية، التي كانت آخر إمبراطورية ضمت تقريباً كل بلاد المسلمين، وكانت بالذات غير ما سبقها من إمبراطوريات إسلامية، فقد قامت على الفتح والقهر، وكانت تنظر إلى البلاد الإسلامية نفسها نظرتها إلى «المستعمرات». كانت في الداخل مستبدة ظالمة مظلمة، لم تساهم في الحضارة الإسلامية بشيء، ولكنها كانت ذات بأس عسكري منظم قوى.

فبعد أن فرغت أوروبا من إخراج مملكة الإسلام المتحضرة المزدهرة من إسبانيا غرباً، إذا بها تواجه - وبعد هذه الحروب الصليبية كلها - خطر الغزو

(١) ارجع إلى ص ١٥٤ من كتابي «الإسلام والغرب وجهًا لوجه» إلى ص ١٧٤ وإلى هذا العدد من مجلة «العربي».

الإسلامى أو التركى من الشرق، بعبور الأتراك من آسيا إلى أوروبا، واحتلال البلقان بأكمله، والوصول إلى حدود امبراطوريات روسيا والنمسا وغيرها.. ومر وقت طويل، والإمبراطورية العثمانية تشيخ، والعالم الإسلامى والعربى يتدهور ويتحلل، وتسدل عليه ستائر الظلم والإظلام».

هذا فى حين بدأت أوروبا عصر النهضة، وقضت على الإقطاع، وبدأ عصر الخروج إلى مستعمرات أخرى بعيدة، وعصر الصناعة فى أعقابه يغذيه ويقويه. صارت أوروبا أقوى قوة فى العالم، هى سيدة المال، وسيدة التجارة، وسيدة الصناعة، وسيدة البحار.

وقد وصلت قوتها وحضارتها إلى الهند وأستراليا شرقاً، إلى أقصى أطراف أمريكا الجنوبية غرباً وجنوباً.

ولكن الجوهرة الثمينة: «الشرق العربى»، لم تفارق خيالها، وحفر قناة السويس زاد من أهميتها، ومن هنا يمكن القول: إن الحرب الصليبية التاسعة قد بدأت منذ انحلال الإمبراطورية العثمانية، إذ بدأت إنجلترا وفرنسا وروسيا تدعى كل منها حقاً فى حماية أقلية من الأقليات فى العالم العربى؛ انتحالا لأسباب التسلل والتدخل، ثم صراع إنجلترا وفرنسا على مصر، وفوز إنجلترا بمصر وقناة السويس باحتلالها مصر، الأمر الذى لم تقو عليه الحملات الصليبية كلها، وخداع الإنجليز للثورة العراقية، واتفاقية «سايكس بيكو» التى قسموا بها العالم سراً بينهم، ووعد بلفور لليهود بوطن قومى فى فلسطين.

هذه السلسلة من الأحداث الغربية، التى استغرقت فى مجموعها ما يقرب من قرن من الزمان، وتوجت بدخول «اللورد اللنبى» القدس، ودخول الجنرال غورو» الفرنسى دمشق، تكون فى مجموعها ما يمكن أن نسميه استناداً إلى التاريخ الذى سردناه «الحرب الصليبية التاسعة»، وهى أول حرب تحقق أغراضها كاملة، منذ اندثرت ممالك الصليبيين فى الشرق قبل ذلك بنحو ستة قرون.

طبعاً كثير من الظروف تغيرت، والأفكار الدينية لم تعد هى الحافز فى أوروبا،

بل صارت المصالح السياسية والاقتصادية، هي الأساس السافر لكل شىء، ولكن عندما دخل «الجنرال غورو» دمشق، وهو قائد الحملة الفرنسية في الحرب العالمية الأولى، ووقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبي، لم ينس أن يقول كلمته الشهيرة: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

فالجنرال «غورو» حين نطق لسانه بهذه الكلمة، وهو يقف على قبر صلاح الدين، كان يعرف طبعاً أنه جاء غازياً لاستعمار الشرق، ولكن غلب عليه ما تعلمه في المدرسة وما وراه من تراث، فحقق قلبه، ونطق لسانه بما طاف في خاطره في تلك اللحظة.

وسواء قالها بالمعنى الديني، أو بالمعنى العسكري، أو بالمعنى الحضارى، فلا شك أن العناصر الثلاثة كانت متداخلة، وهو يقول هذه الكلمة، وإن تغلب فيها عنصر على عنصر آخر. دام هذا النظام الذى أسفرت عنه الحرب التى أسميناها بالحرب التاسعة، دام هذا من ١٩١٩ إلى ١٩٤٨..

كانت هناك حركات وانتفاضات، وشبت ثورات شتى في هذا القطر العربى أو ذلك، ولكن كل هذه التحديات والثورات والانتفاضات، لم تغير كثيراً من وضع المستعمرين الإنجليز والفرنسيين، وفي خضوع السلطات المحلية لحكمهم... على أن الحرب العالمية الثانية قد غيرت الظروف الدولية تغييراً عميقاً.

لقد ظهر الاتحاد السوفيتى والمعسكر الشرقى، ممتداً إلى منتصف أوروبا بالضبط ومهدداً ما عرف باسم «الحضارة الغربية المسيحية»، أو المعسكر الغربى الذى انضمت إليه وتولت زعامته الولايات المتحدة.

وشبت حركات التحرر في العالم، وقامت الثورات، وشعرت أوروبا بالنسبة للشرق أن وجودها فيه مهدد بالزوال، وأن المسألة مسألة وقت.

وكان هذا الشعور قديماً، ومنذ احتلوا الشرق ١٩١٩. ففي وثائق مؤتمر

«فرساي» بعد الحرب العالمية الأولى، مذكرة ينصح الإنجليز فيها أمريكاً بالموافقة على إقامة وطن لليهود في فلسطين، لأن مثل هذا الوطن (على نمط الممالك اللاتينية القديمة) له صفة قابلة للدوام، وسوف يكون خير وسيلة لحماية

قناة السويس لحساب الغرب، فهي نفس فكرة إقامة دولة في قلب الشرق، تحرس مصالحهم، ويمسكون منها بخناق العالم العربي...

نفس ما ترجمه وزير الطيران الأمريكي السابق «سمنجتون» حين وصف إسرائيل: «بأنها بمثابة حاملة طائرات غير قابلة للغرق»^(١).

لقد وجدوا في ظهور الدعوة الصهيونية وسيلة مواتية، لأنهم صاروا إلى وقت لم يعد ممكناً أن يقنعوا فيه شعوبهم بحمل الصليب والذهاب للشرق تحت اسم الحروب المقدسة، والقدس مفتوحة للحجاج إليها من كل مكان، والحروب الدينية لم تعد مقبولة، ولكن ها هو مجتمع أفرزته أوربا، وإن كانت قد اضطهدته، ولديه حافز قوى للرجوع إلى مملكة القدس القديمة، فالفرصة سانحة لإقامة قاعدة غربية في قلب الشرق.

لقد ذبحوا اليهود في القدس ومنعوا من الإقامة فيها من قرون، واضطهدوا اليهود في بلادهم الأوربية بشتى أنواع الاضطهاد، ولكنهم الآن صاروا يرون في إقامة دولة يهودية دينية هدفاً أساسياً وسامياً...

وقد تزايدت أهمية المنطقة بسوقها التجارية الضخمة، وبموقعها الإستراتيجي الخطير، خصوصاً بعد ظهور الاتحاد السوفيتي في الشرق، وفوق هذا طبعاً البترول، الذي لو انتقل من يد إلى يد - كما قال كيسنجر صراحة - لانتقلت كل موازين القوة في العالم.

(١) ويبدو هذا لنا في احتضان الولايات المتحدة بالذات لإسرائيل، بعد أن أسرعت كل دول العالم شرقها وغربها في الاعتراف بها حين قيامها ١٩٤٨، ويظهر لنا في التعهدات التي يبذلها المرشحون للرئاسة في الولايات المتحدة، بضمن بقاء إسرائيل متقدمة ومتفوقة على العرب كلهم، وفي المعاهدات التي تبرمها الولايات المتحدة الآن معها، ولا ننسى مدها بجسر جوى يحمل مختلف الأسلحة حين انهزمت أمام الجيش المصري في أكتوبر ١٩٧٣، ويصرح «كيسنجر» وزير خارجيتها بأن بلاده لا تسمح لمصر بالتغلب على إسرائيل، ولو دخلت بلاده الحرب ضد مصر، بل إنه هدد الرئيس أنور السادات بذلك في وقتها، حتى وافق على إيقاف الحرب وقال إنني غير مستعد لحرب أمريكا... ولماذا لا يستمرون في احتضانها، وقد وجدوا خطتهم من زرعها في قلب العالم العربي تنجح لآخر مدى؟ ويساعدها العرب أنفسهم على نجاحها بتفرقهم وعدائهم بعضهم لبعض.

وهكذا تضافرت العوامل لبدء الحرب الصليبية العاشرة:

«الحرب العاشرة التي بدأت منذ إقامة دولة إسرائيل ١٩٤٨ وما زالت مستمرة الآن، وستستمر طويلاً...»

إننا لم نتحدث عن الحروب الثمانية المسجلة في كتب التاريخ إلا بإيجاز، وقد كان بعضها قصير العمر، وبعضها طويلاً، استغرق أجيالاً، وشمل عدة حروب في حقبة واحدة بهذا المعنى نقول: إننا منذ ١٩٤٨ ونحن في الحرب العاشرة. لقد حاربت إسرائيل العرب عدة مرات حرب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، أكتوبر ١٩٧٣.

كانت لكل حرب ظروفها وملابساتها، وهزم العرب فيها جميعاً إلا حرب ١٩٧٣، ولكن يجمع بينها صفات كثيرة أخرى. فكلها كان بتأييد ساحق - علني وسري - من الغرب، وكلها كان فيه الخصوم يستفيدون من الخلافات العربية، وكلها كانت تستهدف توسيع رقعة إسرائيل، وفرض وجودها على العرب بالقوة. وقد كانت تتخلل هذا كله لحظات من السلم المسلح، أو الهدنة، أو اللاحرب واللاسلم، ولكنها حين تنظر إلى مجموعها نجدها حرباً واحدة في فصول ووقفات كثيرة.

وآخر معركة من معاركها إلى الآن هي الحرب الأهلية اللبنانية. صحيح أن هناك تناقضات عربية كثيرة، وصحيح أن هناك بعد ذلك تناقضات لبنانية فلسطينية، ثم تناقضات لبنانية بحتة. ولكن الذي لا شك فيه أمران:

الأمر الأول: أن هذه الحرب الأهلية سببها وجود إسرائيل، وطردها للشعب الفلسطيني، ورفضها حتى الاعتراف بوجوده، ومحاولتها المستمرة لعرقلة أى جهد سلمي، مع الاستمرار في تهويد ما غزته من أراضى دول عربية أخرى، وهذا كله يخلق توترات على الجانب الآخر من الحدود، انفجرت مرة في الأردن، ومرة أخرى في لبنان.

«الأمر الثاني: أن هناك أياد أجنبية - إسرائيل؟ أمريكا؟ قوى أخرى؟ - لعبت دوراً في إطالة هذه الحرب الأهلية البشعة^(١) في لبنان وأن هناك من تعمدوا تلويها باللون الديني إذكاءً لروح الصليبية القديمة في الغرب. وهناك من فكروا في التقسيم؛ بمنطق ما سبق حدوثه في ظروف سابقة».

ثم تحدث عما قاله من قبل بصراحة بخصوص إسرائيل وفلسطين ولبنان ثم قال: «هذه بعض الحقائق الأولية التي يجب أن يعرفها كل مسلم، حتى ولو لم يكن متديناً، ويعرفها كل مسيحي شرقي، يصاب بما يصاب به المسلمون في أوطانهم، لأن هدف الغرب ليس مجرد الدين وحده، بل البلاد الإسلامية بخيراتها، وكل سكانها - والمسلمون على الأخص - ليضعفهم ويمتصهم، باعتبار أن قوة الدين في قوة المعتنقين له، والمتمسكين به، وباعتبار أن المسلمين قوة لها خصائصها، وهم لا يحبون أن يخضعوا لقوة أخرى تتحكم فيهم».

على أن الذي ينزل بالمسلمين في دولهم، ينزل بالتالي على المسيحيين الشرقيين من أهل هذه الدول، وينعكس عليهم، مما جعلهم يقفون صفاً واحداً مع المسلمين ضد هذا التهجم الغربي..

وأعود فأقول: «ليس هدفي من وضع هذه الحقائق أمام كل مسلم. أن أثير في نفسه روح التعصب الأعمى - كما قلت من قبل - بل روح الحذر واليقظة، وفهم الأمور على حقيقتها، دون انخداع بأي قول معسول، أو مظهر براق، أو اتهام مغرض مكذوب».

والهدف الذي يوضحه ويرمى إليه الكاتب والمحلل السياسي الكبير، هو أيضاً هدفي مما أكتبه وأتحدث به دائماً، لأوقف المسلمين للحقائق المتراكمة حولهم. وأرجوا أن يدركوها ويعملوا لها.. ولا يتركوا عدوهم يتسلل إلى بيوتهم وأفكارهم... تحت أي شعار...

(١) كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين هذا بعد قيام الحرب بنحو سنة، وذلك ١٩٧٦ ونحن الآن ١٩٨٥، وحين أذان جميع أعضاء مجلس الأمن أسرائيل، وطالبها بالانسحاب في أغسطس ١٩٨٤، تقدمت الولايات المتحدة بـ«فيتو» ضد القرار، حتى تبطل مفعوله ولا تزال تفعل مثل هذا حماية لإسرائيل.

ولياخذوا من العلوم والصناعات ووسائل التقدم المادى ما استطاعوا، فإن ذلك واجب دينى ووطنى على ألا يחדشوا بذلك دينهم وثقافتهم وتقاليدهم الأصلية، وآدابهم العريقة...

مدى تأثرنا بالغرب:

لقد كانت مصر بسبقتها الدول الإسلامية فى الشرق، فى الأخذ بأساليب النهضة وبموقعها الجغرافى من أوربا وبارسها البعثات للتعلم فيها، وبصلاتها التى كونها الحكام مع الغرب، كانت مصر بذلك وبغيره، أرضاً خصبة لنقل الحضارة والتقاليد، والثقافة الأوربية إليها...

قام بذلك الغرب وحكامه، بقدر ما قام به المصريون المستغربون، الذين كانوا دعاة للثقافة الغربية بيننا، وكانوا أعلى وأقوى صوتاً وتأثيراً من الغربيين أنفسهم... بعد انبهارهم بالغرب وانبهارهم داخلياً أمامه، قرأوا أن علينا - إذا أردنا النهوض والحقاق به - أن نسير على منواله فى كل شىء...

ولو أنهم كانوا على قدر من التماسك والولاء لأصالتهم، لركزوا دعوتهم على أن نأخذ من الغرب العلوم والصناعات والنظم التى نهضت به، قبل أو دون أن نأخذ منه ثقافته وتقاليده...

فالنهضة فى الغرب إنما قامت على اقتباس الأساس العلمى والصناعى من الشرق أولاً، لا على اقتباس الروح الإسلامية منه، والعلم والصناعة والجديّة فيها، سهل نقلهما، والاستفادة السريعة منها... دون أن نمس عقيدة أو تقليداً كريماً.. كما فعلت اليابان وغيرها من الدول التى نهضت...

ولأمر ما أراه الله بمصر، رأينا صوت الذين درسوا على الغرب التاريخ والفلسفة والاجتماع والعلوم النظرية بعامّة، أقوى وأحد وأسبق من أصوات الذين درسوا العلوم والصناعات هناك... فى الدعوة للاقتباس من الغرب خيره وشره وحلوه ومره...

ورأينا تأثرنا بالأفكار النظرية أكثر من تأثرنا بالدعوة العلمية^(١)...
ورأينا - كما يقول الأستاذ «أبو الحسن الندوي»^(٢):

«إن كثيراً من الجامعيين في مصر رجعوا متشبعين بروح الغرب، يتنفسون برئته، ويفكرون بعقله، ويرددون في بلدهم صدى أساتذتهم المستشرقين، وينشرون أفكارهم ونظرياتهم في إيمان عميق، وحماسة زائدة، فلا يقرأ إنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثاً، ولا يعرف له نظرية، إلا ويجد أديباً أو مؤلفاً في مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ويشرحها، ويدعو إليها بكل لباقة وبلاغة مثل: بشرية القرآن، وفصل الدين عن السياسة، وأن الإسلام دين لا دولة، والدعوة للعلمانية والشك في مصادر العربية الأولى، والشك في قيمة الحديث العلمية، وإنكار مكانته وحجيته ومكانة السنة في الإسلام، والدعوة إلى تحرير المرأة ومساواتها^(٣) بالرجل، وكون الفقه الإسلامي مقتبساً من القانون الروماني، ومتأثراً به في روحه وسبكه، والدعوة إلى الحضارات السابقة على الإسلام، وتمجيد العصر الفرعوني، والدعوة إلى العامية والتأليف بها، واقتباس الحروف اللاتينية، والتقتين المدنى العربى على أساس القانون المدنى الغربى... إلخ».

«وإنما نرى ظلال الفكر الغربى وارفة ممدودة على العقول والأقلام العربية

(١) يقول الأستاذ «برنارد لويس»، أستاذ في جامعة لندن في مقال له ١٩٦٣ «إن العمل المبتكر الأصيل في مجال العلوم التطبيقية لم يتقدم في الشرق الأوسط مثل ما تقدم في الصين واليابان والهند - ونضيف الآن وكوريا وفرموزا-، لذلك يلاحظ بون شاسع بين الشرق الأوسط والدول الأوروبية المتقدمة.. بون أوسع مما كان قبل قرن أو نصف قرن حين بدأت عملية «التغريب في الشرق الأوسط» ص ١٣٣ المصدر الآتى.. تأمل.. وانظر إلى خيبتنا العلمية بجانب خيبتنا الثقافية على يد رجال منا.. الفرق بيننا وبين أوروبا الآن من الناحية العلمية والصناعة أوسع مما كان من قبل، حين بدأت عملية التغريب، وكان من المنتظر أن ينمى هذا الفرق أو يضيق... وفي المقابل من «خيبتنا» العلمية، تجرد «شطارتنا» ومهارتنا في تقليد المظاهر والتيارات المتفسخة التي لا تنهض بأمة مثلنا في حاجة إلى النهوض، ولذلك لما زرت بعض دول أوروبا، ولمست الجدية والنظام فيها مع ما لمست من أشياء لم تعجبني وقارنت ذلك بما يجلبه لنا المقلدون للغرب قلت: لبيتهم قلدوا في النافع هناك كَمَا قلدوا في الضار، إذن يحصل شيء من التعادل على الأقل.

(٢) في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» نشر دار الندوة للتوزيع - بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م الطبعة الأولى ص ١٣٠.

(٣) مع أن الغرب وحتى الآن لم يصل إلى ما وصل إليه الإسلام من احترام المرأة وإنصافها. انظر كتابي الإسلام والغرب.. فما يختص بالمرأة.

مسيطرة عليها، سيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة، منعكسة فيها انعكاس الشمس في المرآة الوضيئة، وقد شهد بذلك عالم مستشرق عرف الشرق الإسلامى وعرف تياراته الفكرية معرفة دقيقة وهو «هـ، أ، و، جب»، حيث يقول في كتابه «أين يتجه الإسلام؟» أو «وجهة الإسلام»:

«وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربى، ولدى تغلغل الثقافة الغربية فى الإسلام، كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية.. علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التى ابتكرت بدافع من التأثير بالأساليب الغربية بعد أن تهضم وتصبح جزءاً من كيان الدولة الإسلامية، فتتخذ شكلاً يلائم الظروف».

ولا نريد أن نقول من عندنا شيئاً حتى لا نتهم بالتجنى، ولكننا نترك تصوير تأثيرنا بالثقافة العربية وحضارتها للدكتور طه حسين نفسه، حيث يقول فى كتابه^(١) «حياتنا المادية أوربية خالصة فى الطبقات الراقية، وهى فى الطبقات الأخرى تختلف قريباً وبعداً، باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوظهم من الثروة، وسعة ذات اليد، ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية، إنما هو المثل الأعلى للأوروبى».

«وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة، نظام الحكم أوروبى خالص، نقلناه فى غير تخرج ولا تردد.. إلخ»

«والتعليم عندنا على أى نحو قد أقمنا صروحه، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضى؟ على النحو الأوروبى الخالص، ما فى ذلك شك، نحن نكون أبناءنا فى مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوروبياً لا تشويه شائبة».

ثم يقول «وكل هذا يدل على أننا فى العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم، حتى نصبح جزءاً منها ومعنى وحقيقة وشكلاً».

ولذلك وجدنا طه حسين يبرر ذلك بأن العقلية المصرية ليست شرقية، وإنما

(١) «مستقبل الثقافة فى مصر» ١٩٢٨ ص ٣١، عن «الصراع بين الفكرة الإسلامية» سبق ذكره.

للندوى ص ١٣٤ وما بعدها.

هى أوروبية أو قريية منها، والعقل المصرى لم يتأثر بالفرس ولا بالرومان ولا بالعرب والإسلام.

ويقول فى ذلك: «إن من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهنود والصين».. وعلى هذا لم يكن غريباً عليه أن يدعو المصريين إلى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم، ومشاركة الغربيين - أعضاء الأسرة العقلية الواحدة - فى جميع مناهجهم ومقاييسهم وأذواقهم وأحكامهم فيقول: «علينا أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لتكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يجب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب»^(١)

وأن نشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوم الأمور كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها!!^(٢)

نعم.. وننسى كل مقوماتنا.. ونكون بذلك قد بلغنا رشدنا!!.. وإلى هذا المدى من الهبوط والمسخ يدعو الدكتور طه أمتة، الإسلامية أن تنظر إلى الحياة بعيون الغرب ومزاجه وتحكم حتى على الأشياء التى يجرمها القرآن بالحل لأنها فى نظر الغرب مباحة!!.

وما أكثر ما يبيحه الغرب، ويحرمه الإسلام ويمقتة، لكن لا بد أن نتنازل عن الإسلام، ونحكم بحكم الغرب لنكون متحضرين. ولأن عقليتنا عقلية.. كما يرى الدكتور!!.

وهذا بلا شك من رجل اقتعد قمة الفكر والأدب العربى، يمثل قمة التحلل من الثقافة الإسلامية وحضارتها، وينبئ عن مدى ما فعله الغرب فى عقول ونفوس المصريين، حتى الذين كانت دراستهم حتى نهايتها أزهريّة^(٣).

(١) ص ٤١ مستقبل الثقافة فى مصر.

(٢) ص ٤٤ من المصدر السابق.

(٣) وصل الدكتور فى دراسته إلى امتحان الشهادة العالمية النهائية، ولكن لجنة الامتحان لم توافق=

وإن كنت أحب ألا يأخذ القارئ هذا كقاعدة عامة، فكم عاد من الغرب مصريون مسلمون وهم أقوى ما يكونون تماسكًا بثقافتهم الإسلامية والعربية، وإن لم يدرسوا في الأزهر.. والناس أشكال وأنماط «وكل ميسر لما خلق له»، كما يقول رسول الله ﷺ.

وقد كان بعضهم مفتونًا بالغرب وردد عندنا أفكاره الغربية عنا، ثم اعتدل وعاد إلى رشده وأحضان دينه وثقافته.. ولكن كون إنسان مثل طه حسين يقول هذا، وهو يتصدر الزعامة في الحياة الفكرية، ويلعب دورًا كبيرًا كذلك في الحياة السياسية، يدل على ما وصل إليه نفوذ الثقافة الغربية في نفوس المصريين^(١).

وهذا بلا شك قد أثر على مجرى الحياة الاجتماعية، وعلى التعليم في مصر قبل الجامعة وفي الجامعة.. مما خرج لنا تلامذة له قد مزقوا حجاب الاحترام والتقديس للقرآن والتعاليم الإسلامية.. وكان طه أمامهم في هذا فيما كتبه، من إنكار وجود شخصيات من الأنبياء، حدثنا عنها القرآن، كإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، مما أحدث ضجة في أيامه وإنكارًا شديدًا عليه حتى أحدث ذلك

= على منحه الشهادة، فأتيت له أن يكمل دراسته في فرنسا. ويعود ليكون في النهاية عميد الأدب العربي. وهذه العقلية أو الروح المذابة في أوروبا: فهل ظل مؤمنًا بهذا أو تخلى عنه لما امتد به العمر؟ وتلاشت عقده من موقف الأزهر منه؟

(١) لأنني أرى أن حسن استقبال الأثرية من المثقفين له، وترجيهم بآرائه، واعتباره بصفة عامة من الأعمدة الكبرى لحياتنا الثقافية، بل عميد الأدب العربي، كل ذلك يدلنا على الأرضية المستغربة للمصريين الذين هينوا له هذا كله.. ولعل مما هو أعجب من ذلك أن يكتب عنه كتاب بعنوان «قاهر الظلام» ثم يخرج هذا الكتاب في مسلسل بهذا العنوان، وكان من المحاور الأساسية لدى الكاتب والمخرج في هذا المسلسل: التركيز على ظهور الأزهريين من زملاء طه حسين بالمظهر الذي لا يليق، ليظهره في مظهر البطل على حساب النهويين من شأن زملائه، وإظهارهم بمظهر يثير الإشفاق أو السخرية.. ونحن نجد في مفكرينا عمالقة في فكرهم ومعاصرين له، ولكنهم لم يجيدوا حفظ كحظه، لأنهم في مظهرهم الفكري العام أصلاء في ثقافتهم، يدعون دائمًا إلى الأصالة وإلى الاعتزاز بالشخصية المصرية، حتى رأينا عملاقًا كالعقاد - وأنا لم أجلس إليه مع الأسف ولم تتعارف - يخطف حين منح جائزة الدولة أمام رئيس مصر في ذلك الوقت - جمال عبد الناصر - يقول: إذا كان لي أن أشكر أحدًا على هذا فإنني أشكر قرائي الذين أتاحوا لي هذا التقدير وهذا الموقف.. ولم يرض أن يتملق الرئيس وكان حاكمًا بأمره - كما عاش طه حسين يفتدق على الملوك والرؤساء ألوانًا من الثناء والزلفى وكما عاش يردد ما يفتنه المستشرقون في وجه الإسلام في حين حرص العقاد على إبطال هذه السموم في كتبه، وكذلك المرحوم مصطفى صادق الرافعي.. وهذه حقائق لا نريد منها الغض من دور طه حسين في نواح أخرى..

أزمة وزارية جامعية بسبب تدخل السياسة في الموضوع. وانتصار رجال من الأحرار الدستوريين له، بحجة حرية الرأي وتوفيرها في رحاب الجامعة..

لكنهم في الحقيقة كانوا من الذين لا يهمهم من القواعد الأصيلة والركائز الأولى في إسلامنا، بقدر ما يهمهم اتخاذ موقف سياسي، ضد رجال الحكم الآخرين الذين استنكروا عليه موقفه في هز ثقة المسلمين بالقرآن، وإمكان تحللهم من تصديق ما جاء به من قصص مثل قصص إبراهيم وإسماعيل .

وذلك حين يقول^(١): «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنها أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي!! فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة».

ويذكر طه حسين أن اليهود انتحلوا هذه القصة، واستغلها «محمد» لإثبات صلة بين الديانتين اليهودية والإسلامية، ويذكر المرحوم «الشيخ الخضر حسين» في رده على طه حسين، أن فكرته هذه نقلها عن مستشرق ويقول «وقد أخذ من هنا (أى طه حسين) يتحفز ليعلن الطعن في القرآن بكلام استرق سمعه من ذيل مقالة في الإسلام»

ويذكر الشيخ ص ٧٧ ما قاله صاحب الذيل ص ٨ ليبين مقدار أخذ الدكتور منه، قال: «وحقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقها قداماء اليهود للعرب تزلزلاً إليهم... إلخ».

وقد وجد الدكتور أن الأسهل والأوفق لغرضه، أن يتبنى مثل هذه المطاعن، لا أن يردها وينقضها، ويكتب ذلك بعد أن يلقيه على طلابه في الجامعة، ليثير حوله تلك الضجة التي حدثت حين إخراجه لكتابه، ويصير من زعماء الفكر الحر، وزعماء الأدب العربي.. ولم يكن مثل هذا التهجيم ليروج ويتعصب له حكام

(١) ص ٢٦ من كتابه «في الشعر الجاهلي» كما جاء في كتاب نقض كتاب «الشعر الجاهلي» ص ٧٦ للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر في الخمسينات وقد رد فيه على طه حسين بكتابه هذا، طبع ونشر المطبعة السلفية ١٣٤٥هـ.

وزراء، يحدثون أزمة وزارية وجامعية، لولا أن هؤلاء مثله، يسرون في زفة الغربيين ولا يهمهم أن يرمى القرآن بالكذب والرسول بالتحايل. متمسحين بحرية الرأي، حتى في مثل هذه!!.. وما كان هذا غريباً على أناس رضعوا من ثدى واحد، وصاروا أبناءً لأهمهم من الرضاع يؤدون لها واجب الولاء والوفاء، ولو على حساب أهمهم الأصيلة.

يقول المستشرق هـ. أ. ر. جب^(١):

« ليس هناك طالب ذكى يقضى ثلاث أو أربع سنين، في عاصمة أوروبية، مختلطاً بأهلها كل يوم، وقارئاً ما يكتبون: خيره وشره، من غير أن تتشرب نفسه شيئاً أكثر من قشور المدينة الغربية، ثم عاد الطلبة: أفراداً وبعوثاً، لا بدراسات فنية فحسب، ولكن بجراثيم الأفكار السياسية، بل بجراثيم العادات الاجتماعية أحياناً مما كان متضارباً مع تقاليدهم الموروثة. وقد كان الأثر ضعيفاً في الجيل الأول، ولكنه تضاعف في الجيل الثاني، وأخذ يتضاعف باطراد»، على حساب ثقافتنا الأصيلة طبعاً!!

لكن الفرق يبقى دائماً بين حامل الجراثيم، المستعد للتفاعل معها فتظهر عليه أعراضها، وبين إنسان عنده مناعة تحفظه من أن يمرض بها وتظهر عليه أعراضها.

وعلى قدر قوة الإنسان الصحيحة تكون درجة مناعته، قوة وضعفاً. وإن كان ذلك لا يمثل كل شيء في هذه الناحية، ففيه عوامل أخرى نفسية تتدخل في تكييف هذه المناعة.. لأن هناك أناساً قد يحملون من تربيتهم الأولى قدراً كبيراً من المناعة، لكن تطراً عليهم ظروف نفسية في كبرهم، تغلب هذه المناعة أو تعطيها وتنفرد هذه الظروف بقيادته وتوجيهه، حتى إلى ما يناقض سمته واتجاهه في الشطر الذى قضاه من حياته.. فكم رأينا كباراً يتحولون من النقيض إلى النقيض.. ويتنكرون لما مضى من حياتهم.. وقد يعودون لظروف أخرى إلى

(١) في مقدمة كتاب «وجهة الإسلام»، الذى كتبه عدة مستشرقين وأشرف عليهم «جب»، ثم ترجمه الاستاذ محمد عبدالهادى أبوريدة الطبعة الأولى ١٩٣٤ ص ٣٥.

سالف حياتهم الأولى.. هكذا نرى على شاشة الحياة أماننا..

فلم يكن عجباً أن يسقط الدكتور وأمثاله على آراء شاذة طاعنة في القرآن،
فيأخذ في ترويحها لحاجة في نفس يعقوب!! وتتغلب هذه الحاجة على كل ما تلقاه
في بيته الريفى المؤمن، وفي وسطه الذى تعلم فيه، حتى بلغ أوكد يبلغ الذروة من
تعلمه في الأزهر، لولا علماء امتحنوه في العالمية وأسقطوه، إن حقاً وإن إجحافاً..

لكنه خرج من امتحانه بكتل من الطغينة على هؤلاء العلماء، وعلى الهيئة التى
يعملون فيها، وعلى الرسالة التى يعملون لها، فحولته إلى إنسان ينتهز المناسبات
ليوجه سهامه إلى هذا كله، ليثأر لنفسه، كما يتصور، ثم يأخذ الناس بالظاهر منه،
ويحكمون عليه بما تؤدى إليه «ظاهر الأوراق»، كما يقول السادة القضاة.. والله
وحده هو الذى يعلم السرائر^(١) ولكن يمكن القول في هذا كله، إنه آثار الغزو
الثقافى تجلى في هذه الصورة وعلى يد رجل منا كبير!!

ليس وحده:

لم يكن الدكتور وحده في هذا، وإن كانت الضجة التى ثارت حوله، قد

(١) لقد صحبته رحمة الله عليه في زيارة للمدينة مع الوفد الثقافى للجامعة العربية ١٩٥٥ وكنت مقياً بها
ويدي في يده، حين وقف أمام قبر الرسول وصاحبيه، أسمع خلجات نفسه يرددها لسانه بصوته الهادى
المميز، فما سمعت أروع ولا أنفذ إلى القلب من دعائه ومناجاته وضارته، وكذلك حين ذهبنا لزيارة
«البقيع» وإلى ميدان سيد الشهداء «حمزة» رضوان الله عليه.. مما جعلنى أقول: لعله العناد الذى حمله على
أن يقول ما قال، ولعله شيء آخر في نفسه، وبعد شهر من هذه السنة، وفي أواخرها يقاقتنا بظهر من
مظاهر العناد، والأخذ بالنار من الأزهر، حين طالب على صفحات «الجمهورية» بما سماه «الخطوة الثانية»،
التى يدعو فيها إلى إلغاء المعاهد الأزهرية والاكثفاء بالمدارس العامة، كما كانت الخطوة الأولى «إلغاء
المحاكم الشرعية» والاكثفاء بالمحاكم الأهلية أو الوطنية. وبشاء الله أن أقود الرد عليه في مساجلات ظلت
بيننا نحو شهرين أو أكثر على صفحات «الجمهورية» انتهت بتراجع، متهاً إيانا بأننا لم نفهم غرضه..
وكانت «حجة» وتعلل لتبرير التراجع وحفظ ماء الوجه، فقد كان يمكنه أن يقول ذلك من أول رد عليه،
ولكنى اكتفيت بتراجع، ولم أشأ أن أعلق عليه إشفاقاً بالرجل.. بل عرض على تلميذه المحرر بالجمهورية
وقتها «الأستاذ سامى داود» أن أزوره للتخفيف عنه، فقبلت، ولكن لم تتم الزيارة لظروف..
وقلت يومها: يكفينى أن رأى الذى أذاع عنه قد انتصر، ولا أحب سخائم النفوس، بل أحب أن أعيد
الود الذى نشأ بيننا في رحاب الرسول، وقد علمت من تلميذه أنه في غاية التأثر.. ولكن شاء الله ألا تنقلب
بعدها حتى لقي ربه..

ضحمت آراءه وضخمته أيضاً.. فهناك الكثيرون ممن ساروا على نمطه في التأثير بثقافة الغرب على حساب ثقافتهم الأصيلة، سواء كانوا من أقرانه أو من تلامذته الذين رضعوا من أفكاره أو من غيرهم..

ولعل ما يلحمه القارئ حوله من مظاهر الحياة على اختلاف أنواعها يغنيها عن تتبعها وإبرازها، فالتأثر بثقافة الغرب وتقاليده ومذهبه في الحياة ظاهر على سطح حياتنا، حتى ليظنه الرائي أو الملاحظ، أن هذه المظاهر شيء أصيل فينا مع أنه وارد وافد علينا وغريب!!

نموذج آخر:

ومع ذلك أذكر بعض هذه المظاهر كمثال، وأولها يتصل برجل فينا كبير وكان ولا يزال له دوره ورأيه في تشكيل التعليم، وتشكيل ثقافتنا.. حتى صار فينا شبه مختص في هذه الناحية..

وقد تكفل المرحوم الدكتور محمد محمد حسين أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة الإسكندرية بإثارة الانتباه إلى ما صدر تحت إشراف الدكتور الكبير المتخصص في شئون تعليم الجيل الجديد من أولادنا، وقدمه لقرائه في مجلة الأزهر، ثم في كتابه «حصوننا مهددة من داخلها في أوكار الهدامين»^(١)، وذلك من خلال الكتب التي كانت تصدرها «مؤسسة فرانكلين»، مترجمة عن كتاب أمريكي، إلى اللغة العربية، والتي كان يشرف الدكتور المتخصص على إصدارها، تحت عنوان عام «كيف نفهم أطفالنا»، ويقدم لكل كتاب يصدر منها.

فيذكر الدكتور محمد حسين في صفحة ٦٤ ما جاء في العدد ١٢ من هذه السلسلة على سبيل المثال وعنوانه: «الطفل والأمور الجنسية» فيقول:

«قدم الكتاب في صفحتي ٢٢، ٢٣ مجموعة من الأسئلة في صورة اختبار يساعد الآباء - فيما يزعمه الكتاب - على تبين اتجاه الأطفال في وضوح وجلاء، وعلى تقدير ما تتطوى عليه تصرفاتهم من خطأ أو صواب. ثم أثبت المؤلف

(١) ص ٦٢ الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م، نشر مكتبة المنار بالكويت..

الإجابة الصحيحة المزعومة عن كل سؤال في ذيل الصفحة ٢٣.
ومن بين هذه الأسئلة سؤال رقم ٦ ونصه «هل ترى في التعبير السافر عن
المحبة ما ينبئ عن ذوق رديء، أو ما يثير الحركة؟»، والخطاب هنا موجة للآباء
بالنظر لتعبير أولادهم السافر عن المحبة..

وكان الجواب الصحيح في نظر الأمريكي المؤلف: لا. فكيف ونحن في بلد
إسلامية تنكر ذلك التعبير السافر؟. كيف نوجه أطفالنا إلى ما يستساغ في
الوسط الأمريكي المنفتح جنسياً؟.

هنا الجناية في نظرنا، فإن هذا التعبير السافر تعبير مستساغ في الغرب،
ولا ينكرونه هناك، لكن هل يستساغ عندنا ذلك ديناً أو من ناحية تقاليدنا؟

المؤلف يلفتك الجواب بأنه مستساغ، وينشر ذلك عندنا لتوجيه الآباء؟
«والسؤال التالي: هل تعتقد أن المواقف التي تتضمن ناحية جنسية تثير
الضحك؟» والجواب الصحيح الذي أثبتته الكتاب: «نعم»

فكيف؟: الضحك، أم الغضب والاشمزاز؟

الأمر يختلف عندنا وعندهم..

لكن الذين يحملون رسالة الغرب، وينفقون عليها ملايين الدولارات، والذين
يستفيدون من هذا منا، دون اعتبارهم جنس الثقافة والتقاليد الأصيلة عندنا،
يؤيدون عدم المبالاة بهذا الموقف إلى حد الضحك، ولا يرون في هذا شيئاً من
العيب، ويقدمونه لجيلنا الجديد لكي ينشأ عليه.. وإلى هذا الحد!!

ويستمر الدكتور حسين في سرد بعض أمثلة، مما جاء في هذه السلسلة، التي
يشرف عليها الدكتور المرابي الكبير، فيقول ص ٦٧:

«جاء في صفحتي ٨٧، ٨٨: «في كل علاقة تقام بين فتى وفتاة يشعر كل منهما
بعض الأحيان، بدافع يحفزه على التعبير عن حبه وتقديره للآخر بلمسة.. أو
ضغطة على اليد، أو قبلة»، ثم يقول: «والرغبة في الكشف عن المشاعر بهذه
الطريقة والاستجابة لها أمر طبيعي»!!

هذا أمر طبيعي في أمريكا، بل وأكثر منه طبيعي كذلك.. ولكن عندنا كيف يرضى الدكتور الكبير عن تقديم مثل هذا لنا ولأولادنا؟ ولنا ديننا وتقاليدنا، ويضع أمام الآباء المسلمين والشباب، أن مثل هذا التصرف أمر طبيعي لا غبار عليه؟..

وماذا لو تقدم شاب من شبابنا ممن يبيحون هذا ليصادق بنتهم، ويريد الشاب أن يعبر عن حبه وتقديره لها بهذا الأسلوب أمامه؟ كيف يعترض وهو يقر ويوجه إلى هذا؟

وإذا اعترض، فكيف سوغ لنفسه أن يوجه إليه^(١)؟

وإذا لم يعترض فماذا يكون^(٢)؟ وماذا نقول لأمثال هؤلاء الكبار المربين^(٣)؟ وقد ارتقوا أعلى مناصب التوجيه والقيادة في أخطر مكان؟

لا نقول لهم شيئاً، ولكن نقول لمن يمكن أن ينخدعوا بهذا الكلام: إن هذا أثر من آثار الغزو للقضاء على آدابنا وتقاليدنا، والارتقاء في أحضان التقاليد الغربية.. فاحذروا أن تكونوا فراشة تحترق في لهيب المصباح.. ومن أراد أمثلة أكثر فليرجع إلى الكتاب «حصوننا» فقد سألت عن تلك الكتب (الفرانكيلية) فلم أجدها.

(١) خطر على بالي حكاية لطيفة: خطيب وقف على المنبر يخطب ويحث على البذل والعطاء، ومن كان عنده فضل قوت فليعد به على من لا قوت لهم، ومن كان عنده فضل ثياب فليعد به على من لا ثياب عندهم.. إلخ.. وانتهى من الخطبة، ورجع للبيت وأراد أن يغير ملابسه، فقالت له زوجته سمعت خطبتك وتأثرت بها فتصدقت بملابسك، وبكل شيء زائد عندنا.. فصرخ فيها: يا مجنونة الكلام هذا للناس وليس لنا.. وهذا الحسن ظني بالدكتور..

(٢) حكى لى صديق أنه كان في أمريكا وذهب لزيارة صديق مصرى يمكث هناك من فترة، فوجده في حديقة منزله، فجلس معه، ثم دخل شاب يسأل عن بنته، فقال: بالداخل، فدخل ومكث مدة، وأخذها وخرج، ومرا على الوالد وذراع كل يلتف حول الآخر دون أى كلام، ونظر الوالد إليها، وتلوى من الألم، وقال لصديقه: هذا هو الثمن الباهظ الذى ندفعه هنا.. ولم يطق الضيف المقام، وخرج يرثى حال صديقه ومصيره ومصير أولاده.

(٣) للحقيقة والتاريخ أقر هنا أنه جمعني مع الدكتور مجلس فسألته عن صلته بهذه الكتب التي أصدرتها مؤسسة فرانكلين هل يمكن العثور عليها الآن وفي أسلوب مهذب سألته: هل لا يزال مستسيفاً لما جاء فيها مما يخالف ديننا وتقاليدنا؟ وبكثير من الألم أجاب بالنفي، وأنها كانت غلطة..

والذين تأثروا عندنا بما في الغرب من هذه الناحية الإباحية كثيرون، لا سيما الذين باشروا هذه التجربة هناك، وعادوا يتمنون أن يجدوا مجتمعهم متفتحا يرضى غرائزهم، كالذى تركوه هناك، ومن أجل هذا يشجعون كل تيار يوفر لهم هذا الانفتاح، ويدعون إليه!!.

يقول مستر «سميث»^(١) محملا حركة التنوير والتسامح في العالم الإسلامي «وإن من أهم أسباب حركة الحرية والإباحية التي تسود اليوم في العالم الإسلامي ومن أكبر عواملها: نفوذ الغرب.. فقد سافر كثير من الشباب المسلم إلى الغرب، واطلعوا على روح أوروبا وقيمها، وأعجبوا بها إلى حد كبير، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوروبا بعدد لم يزل يزداد مع الأيام، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب، وقيمة إلى العالم الإسلامي» إلى أن يقول «وبينما قام بعض المسلمين لمقاومة هذا التيار، رحب به البعض الآخر سواء ممن وقع تحت تأثير هذه التربية رسمياً، أو ممن رحبوا بهذا التيار بدافع من أنفسهم... إلخ».

وهكذا ترى أننا واقعون تحت ضربات مطارق متعددة.

* مطرقة المبشرين والمستشرقين، ومؤسساتهم بيننا وأفكارهم، التي ينشرونها لتوهين ديننا وثقافتنا، وإضعاف ارتباطنا بها.

* ومطرقة المستعمر الذي يريد التمكن من نفوذه، وإرضاء تعصبه، فيساند المبشرين والمستشرقين في رسالتهم فينا من ناحية، ويعمل بسلطته على بث الروح والتعليم والنظم الغربية فينا من ناحية أخرى، وهاتان تمثلان الغزو الخارجي..

* ومطرقة من الداخل يمسك بها نفر منا تأثروا بهذا الغزو، ويهون بها على رءوسنا، ويسيرون مع المستشرقين والمبشرين والمستغربين في خط واحد، من حيث يدرون أو لا يدرون وهذه هي مطرقة «الاستغراء».

(١) في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث»، نقلا عن كتاب أبو الحسن الندوي (الصراع) ص ١٨٦

وثقافتنا الأصيلة تحت هذه المطارق - مطارق الغزو والاستغراء - يتهشم رأسها، وتضيع معالمها.. واحداً بعد الآخر.. حتى أصبحت ثقافتنا تعيش عيشة الغرباء المنكسرين، والأمثلة على ذلك كثيرة تحت نظر كل واحد منا، وكثيراً ما تثير فيه السخط على المجتمع الذي تهاون، وتهاون المسئولون فيه، في أعز شيء لدى الإنسان، وهو دينه وثقافته..

صورة أخرى:

وغير هذا وذاك نجد صوراً أخرى عليها طابع الثقافة الغربية، وغزوها لنواحي حياتنا، نجد ذلك في الصحافة وأجهزة الإعلام الأخرى، التي يجد فيها المصرى ترويحاً لعادات وتقاليد الغرب، واتجاهاته في الحياة، حتى نراها تخصص صفحات أو مجلات للملابس الغربية صيفاً وشتاءً، وطريقة حياتهم، دون مراعاة لوجهة نظر الإسلام...

ونرى السينما والتلفزيون يعرضان أفلاماً عربية وغربية لا تلتزمان فيها بمقتضيات الثقافة الإسلامية وآدابها، بل تسير مع الغرب وما يعرض فيه من أمور بعيدة عن آداب الإسلام وتقاليدته، حتى يبدو في بعض الأحوال أن هذه الأفلام تعرض في مجتمع غربي، ويستمر ذلك حتى كأنه أمر عادي في حياتنا، مما يدل على مدى نفوذ الثقافة الغربية وتقاليد الغرب، وامتداده حتى الأوساط الشعبية، بعد أن كان مقصوراً على الطبقات العليا المثقفة محصوراً في دائرتها..

وهذا - كما أرى - هو الخطر الحقيقي على ثقافتنا وتقاليدنا. لأن الذي يحمله ويروجه هو نحن، نحن الذين تأثرنا بالغرب، واندمجنا في حياته، ونقلنا تأثرنا إلى هنا، ماثلاً في كلام وأعمال تهد جدراننا الثقافية وتقاليدنا، وتلغى وجهة نظرنا في الحياة كمسلمين لهم ثقافتهم، أو وجهة نظرهم في الحياة، وما يجب أن تكون عليه. وإلا فبماذا نسمى هذا الانحلال العلى في ملامتنا، والمستتر أحياناً وراء ستار شفاف خلف الجدران؟.

وإذا تحدث كبار المتخصصين عن سلوكياتنا وأخلاقنا، وبحثوا عن وضع معيار أو مقياس تضبط به هذه السلوكيات، وقعوا في حيرة: أى معيار وأى مقياس

يزنون به هذه السلوكيات، ويضبطون وقعها حتى لا تكون نشازاً؟
هل يعتبرون ثقافتنا وآداب ديننا هي معيار الحكم على السلوكيات؟
أو يعتبرون الثقافة الغربية ونظرتها للحياة هي المعيار؟.

إذا اتخذوا الأول كان هذا هو المنطق الذي يقضى به كوننا أمة إسلامية
عربية.. ولكنهم سيواجهون ثورة ممن تأثروا بالغزو الثقافي الغربي الذين يعتبرون
مسايرته عنوان التقدم والرقى.. واحتاج الأمر إلى حسم يضع الأمور في نصابها،
ولكن أين ومتى نجد مثل هذا الحسم..

وإذا اتجهوا إلى الثاني خالفوا منطق الأمة، وجنوا على ثقافتها وأصالتها،
وحولوها إلى أمة غربية، منسلخة عن ماضيها وتراثها.. ومسحوها مسحاً أكثر.
وهذا لن يمر بسهولة، ولكن لن يكون في أمتنا مهما يبدو على سطحها من بثور،
فإنها لا تزال تحتفظ في عمقها بأصالتها..

هذا التنازع والتردد نفسه بين الغرب، وبين الأصالة في نفوس الذين يخطون
الطريق ويضعون المعايير والمقاييس، هو أكبر دليل على مدى تغلغل الثقافة
الغربية في أوساطنا وتأثرنا بها في مجرى حياتنا.. ويعتبر نجاحاً بكل المقاييس
للغزاة وأنصارهم بيننا في اختراقهم حدودنا، وفي زعزعة أمننا الثقافي..

لقد وصلنا في تفكير الكثيرين منا إلى حد أن نعتبر مظاهر الغزو الثقافي بيننا
ضرورة من ضرورات الحياة.. مهما يكن فيها من مخالفات صارخة لثقافتنا
وآدابنا، واعتبار كل من يقف في وجه هذا الغزو رجعيًا ومتأخرًا، لا يريد لهذا
البلد تقدماً، بل يريد عزله عن العالم وما يجري فيه.. إلخ!!

وكان التقدم في نظر هؤلاء هو في مجارة الأوساط الغربية، في وجهة نظرتها
للحياة ولو كان في ذلك ذبح أو وأد لثقافتنا وخصائصنا..

وكان التقدم عندهم هو في إشاعة هذا التفسخ والانحلال الخلقى الذي يفد
علينا من الخارج، وليس في الأخذ بوسائل التقدم الحقيقي من أخلاق فاضلة،
ومن علم وصناعة .

ونتأبنا ويمزقنا الأمل المرير، لأن الذى يروج هذا، ويقوم بعمل «الزفة» له، أناس منا كبار وصغار، جرفهم هذا التيار، فنسوا أصولهم، وقطعوا الجذور التى تربطهم بثقافتهم وأصالتهم، وصاروا يفضلون الهوية الغربية على هويتهم الإسلامية العربية.

ولقد كان هذا الذى يجرى على أرضنا - أرض العروبة والإسلام - دون رادع أو حاجز يوقفهم عند حدهم، من أقوى الأسباب فى حدوث رد الفعل الساخط فى نفس الأمة، والذى بدا من بعض شبابنا، كثورة مضادة وعنيفة، على كل الذين سكتوا عن كل ما يدور من تفسخ وانحلال، يناقض مناقضة صارخة، آدابنا وثقافتنا..

ولقد انصرفنا نلقى اللوم على رد الفعل، دون أن نلقى بالا إلى الفعل، الذى كان من أسباب رد الفعل..

وكان من الضرورى أن نعى بعلاج الفعل والقضاء عليه أولاً، حتى لا يكون هناك رد فعل له.. ونكون بذلك مباشرين للعلاج الصحيح. وَقَدَرْنَا على الحمار ولم نضرب «البردعة» كما يقول المثل الشعبى..

ولكن وقوع الجميع فى منطقة نفوذ التيار الغربى الأجنبى، هو الذى جعلهم يلجئون إلى هذه المسكنات، بالعنف حيناً، وبالكلام حيناً آخر، دون أن تمتد أصابعهم إلى الداء الأصيل .

إن محاولات مسخ هذه الأمة ومسخ ثقافتها، وإبعادها عن أصالتها لن تمر بسهولة إن لم نقل إنها لن تنجح.. فلا بد للنائم أن يستيقظ، وللمخدر أن يضيق، مهما يظل وقت التخدير كما لا بد للتائه أن يعود إلى أحضان أهله، ولو طال به الزمن..

وأمامى الآن مثل من واقع حياتنا، مر على..

فقد جلب الحكام المصريون والمستعمرون الأجانب قانوناً من أوروبا لنحتكم إليه، فى ظل المحاكم المختلطة (١٨٧٦)، والمحاكم الأهلية (١٨٨٣)، وسماه بعض وزراء تلك العهود وهو لا يزال طفلاً فى نشأته بأنه (قانون مصرى) وظل هذا

القانون سائداً بيننا منذ ذلك الوقت حتى الآن..

واعتبره القضاة والمحامون قانوناً مصرياً.. وبنوا حياتهم على أساس تنفيذه وحميته حتى صار موضع قداسة عندهم دون النظر إلى أنه لقيط عندنا في بلادنا وفي بعضه اعتداء صارخ على ديننا وتقاليدنا..

لكن الأمة والأصلاء فيها ظلوا يشعرون بأنه قانون دخيل غريب لقيط، وظل لهم حنينهم إلى قانونهم الأصيل، إلى شريعتهم التي ظلت تسود البلاد والقضاء نحو ألف وثلثمائة سنة قبله.. وظلوا ينادون بأن يعودوا إلى أحضان شريعتهم، أو تعود شريعتهم ليستظلوا بها، حتى في أشد الأيام سوادا وفي عنفوان النفوذ الغربي.. لم يياسوا..

ولا أزال أذكر أنني وبعض زملائي في كلية أصول الدين انتهزنا مناسبة تأليف وزارة «على ماهر باشا» ١٩٣٦ وتكوين لجان لتعديل القوانين فألفنا جماعة سميها «جماعة الدفاع عن الإسلام» وكان هدفها الأول هو المطالبة بالاحتكام إلى الشريعة في قوانيننا..

وبدأنا نعمل لهذا الهدف، وكتبنا، وزرنا بعض الشخصيات الكبيرة المشتركة في هذه اللجان ممن نأمل فيهم التجاوب معنا.. مثل المرحومين: الشيخ أحمد بك إبراهيم رئيس قسم الشريعة ووكيل كلية الحقوق «جامعة فؤاد» في وقتها، والأستاذ «محمد علي علوبة باشا» من أجل هذا الغرض وغيرهم فوجدنا أمراً عجباً..

قال لنا المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم إنني أحاول أن أدخل بعض القوانين الشرعية، ولكنني أجد صموداً كاملاً من أعضاء اللجان، بمجرد أن أعلن لهم أن هذا القانون مستمد من الشريعة. فلجأت إلى حيلة: هي أن أجهز بعض المواد من الشريعة، ثم أعرضها على اللجنة باعتبارها رأياً لي، أو رأياً عثرت عليه في أحد القوانين الخارجية، فكانوا يقرونها!! فإلى هذا الحد كان استبعاد القوانين الشرعية.. وكان الذعر منها في ذلك الوقت.

ولا أزال أذكر كذلك أننا في ذلك الوقت ونحن طلاب متحمسون رأينا أن

نقوم بمظاهرة من كلية أصول الدين بجوار مسجد الخازندارة في شبرا، نطالب فيها ونهتف بضرورة العودة للشريعة، وخرجنا وغلفنا مظاهرتنا بالهتاف لجلالة الملك، لنحمي أنفسنا من «البوليس» ولكن ما إن وصلنا إلى «المدرسة التوفيقية» حتى تعرض لنا البوليس وأمرنا بالتفرق، وكنا نريد الوصول إلى قصر عابدين، فامتنعنا، فانهال علينا ضرباً بالعصى الغليظة وقبض على بعض منا..

ومرت الأيام والسنون أو عشرات السنين.. وبعض الذين كانوا أعضاء في الجماعة وفي المظاهرة لا يزالون على قيد الحياة.. وكان منهم المرحوم شيخ الأزهر الدكتور محمد عبد الرحمن بيسار، وأنا..

وحدث حين كنت وكيلاً للأزهر، وقائماً بأعمال شيخه الذي توفي - كان المرحوم الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود - في أكتوبر ١٩٧٨.

حدث في أواخر ديسمبر ١٩٧٨ أن دق جرس التليفون، وإذا بالمتكلم صديقنا الدكتور صوفي أبو طالب رئيس مجلس الشعب يقول لي: إنني آت إليك لزيارتكم.

وجاء وطلب مني إخلاء الغرفة ليحدثني في أمر مهم. وبدأ حديثه بقول: كنت مع الرئيس محمد أنور السادات أمس، وجاء ذكر تطبيق الشريعة ومطالبة الشعب كله بذلك، حتى أخذ الموائيق على المرشحين حين الانتخاب بذلك، فقال: ولماذا لا تعملون؟ ابدأ يا صوفي فوراً في العمل لهذا.

ولذلك جئت إليك لنعمل معاً في تأليف اللجان، وتبدأ فتمدني بمن تراهم من العلماء، على أن يقوم مجلس الشعب بهذه المهمة، وينفق عليها، ويجهز كل التسهيلات لعمل اللجان..

وبدأ العمل من وقتها، وشاركته وأنا وكيل للأزهر، ثم وأنا وزير للأوقاف وبعدها، وشاركه أيضاً شيخ الأزهر في الإشراف على هذه اللجان بواسطة اللجنة العليا لها.

وفي رمضان ١٣٩٩ - أغسطس ١٩٧٩، دعا الرئيس السادات إلى اجتماع

العاملين في الحقل الإسلامي من أعضاء الجمعيات وغيرهم به في الإسماعيلية، وبعد أن انتهى الاجتماع وسرنا مع الرئيس نودعه إلى استراحته - النائب وقتها (محمد حسنى مبارك) الرئيس الحالى، وشيخ الأزهر المرحوم والدكتور صوفى، والمفتى (شيخ الأزهر الحالى) وأنا فقال الرئيس للدكتور صوفى.. لا تنتظر حتى تجهز كل القوانين، بل كلما تنتهى من قانون تعرضه على مجلس الشعب لإصداره، لكن قانون العقوبات بما فيه من الحدود أخره للآخر..

فقلت له: سيادة الرئيس نريد هذا القانون أولاً، لا لمجرد التعصب للقانون الإسلامى، بل لأنه أيضاً من أكبر العوامل في استتباب الأمن في البلاد. فقال: أنا عارف، وهو في رقبتي، لكنى أريد تأخيرها لأختار الظروف الملائم لإصداره، وقد أديت الواجب عليك، وأنا سأؤديه أيضاً، وأنت تعرف، لكن وأنا حاكم ومسئول عنه، مسئول عن اختيار الوقت الملائم وأحب أن تؤخره يا صوفى الآن وتصدر القوانين الأخرى»

وقد ترك الدكتور صوفى رئاسة مجلس الشعب في الشهور الأخيرة من دورته القصيرة الأخيرة في أواخر ١٩٨٣، وكانت القوانين كلها قد جهزت وطبعت بمذكراتها التفسيرية وصالحة للعرض على مجلس الشعب.. بعد أن بذل كل إمكاناته في إتمامها على النحو المطلوب، مما سيذكر له على أنه من أهم أعماله في حياته..

ولا يزال مشروع هذه القوانين وقد طبعت كلها مع مذكراتها التفسيرية، لدى اللجنة التشريعية تنتظر الإشارة للعمل على عرضها وإصدارها.. وستعرض إن شاء الله، وسينظرها المجلس وتصدر للعمل بها، وتعود البلاد بذلك إلى أحضان شريعته وكل آت قريب..

إننى أذكر الآن هذا بمناسبة ما قلته سابقاً من أن النائم لا بد أن يستيقظ والمخدر لا بد أن يفيق، والثائه لا بد أن يعود إلى أحضان أهله، وإن طال به الزمن.. فكل من سار على الدرب وصل..

وقد كان من أسعد أيامى في حياتى، يوم أن حضرت وشيخ الأزهر الدكتور

يبصر عليه رحمة الله الجلسة الأولى للجنة العليا، لوضع النظام الذى تسير عليه اللجان.. وتذكرت وقتها ما جرى لنا سويا من ضرب فى المظاهرة ١٩٣٦، من أجل المطالبة بتطبيق الشريعة، بينما نجلس الآن فى رحاب مجلس الشعب وتوجيه من رئيس الجمهورية لنعمل لتطبيق الشريعة.. واستغرقت فى تأملاتى لأحداث الزمان، وما حفظته من صغرى: ما ضاع حق وراءه مطالب «وقلت: نعم فمن سار على الدرب وصل.. ولا بد أن تعود الأمة إلى أصولها ولو طال بها الزمن.. ولو غرب بنا البعض أو شرقوا وكل آت قريب..»

ولقد كان الفرق بين الموقفين قريبا من نصف قرن، وهى مدة قليلة جدا بالنسبة لعمر الشعوب.. والمهم أن نظل سائرين فى دربنا الأصيل، وسنصل يوما ما إلى هدفنا، مهما يكن فى طريقنا من عقبات. فالإيمان يذل كل صعب، ويمد أصحابه بالقوة والعزم والمثابرة.. وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال»..

فلا حياة مع اليأس:

إننا لن نئس، ولا يليق بالمؤمنين أن يئسوا أو يقعدوا عن الاستمرار فى طريقهم فإنه «لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون»..

ولن يوهن عزائمنا، أو يخفت صوتنا، هذه المزامير والطبول العالية الصوت، التى تزمر وتطبل للغزو الثقافى، وتشيعه، بيننا، ولا يليق بالمؤمنين أن يتركوا الميدان لهم، ينفردون به، ويعربدون كما يحلو لهم..

فلقد غرهم أنهم جمعوا فى «الزفة» حولهم الكثير من الناس، الذين تسيرهم أهواؤهم وشهواتهم، دون أن يفهموا أن الأصلاء العقلاء لم ولن يمشوا فى هذه الزفة، ولا يليق بهم، فهم أوتاد الأمة، وهم جبالها الرواسى.. وإلى أفكارهم ودعوتهم ستعود الأمور.. لقد زينت هذه «الزفة» وطبؤها العالية الصوت، الفارغة الجوف، زينت لبعض الناس أن يقولوا: إننا دولة علمانية. ويزين البعض الآخر لهم طريق العلمانية، ويتحدث أحد رجال الأحزاب بأن منهج

الحزب هو العلمانية، ويجرد الفعل العنيف من الاستنكار، فيتراجع، ولكن بدون نظام.. ويأتي أحد الكتاب الكبار فيصور العلمانية لقرائه، بأنها مجرد الدعوة إلى العلم والتبحر فيه، وهو أمر يدعو إليه الإسلام ويحفي على قرائه حقيقة من حقائقها البشعة، ليلعوا السم في «برشامة» من الحلوى التي يقدمها لهم! فما هي «العلمانية» بفتح العين أو بكسرها..؟